العثمانية العربية، وبالاصلاح فيها، وباستخدام اللغة العربية في الادارة والتعليم. وأُسس حزب العهد في العام ١٩١٣، وجمع بين صفوفه، بشكل اساسي، الضباط العرب الذين كانوا عاملين في الجيش العثماني. وتتطابق مطاليب هذا الحزب، اجمالاً، مع نظيرتها لدى حزب اللامركزية: الاستقلال الذاتي للولايات العثمانية العربية، والاصلاح فيها، بالاضافة الى بقاء الخلافة في آل عثمان، والتضامن العربي ـ التركي من اجل حماية الدولة. وأنشئت جمعية «العربية الفتاة» في العام ١٩١١، بعد ان نمت فكرة تأليفها في استامبول العام ١٩٠٨، وعملت على الانتشار بين العرب في تركيا وفي الشرق العربي، وكانت مطاليبها تتلخص، أيضاً، باللامركزية وبالاصلاح. وتعود الى هذه الجمعية المبادرة بدعوة الحركات العربية الاخرى، المناوئة لتركيا، الى عقد مؤتمر عام لها في باريس، وقد تم ذلك في العام ١٩١٣، وخرج المؤتمر بمقررات وبمطاليب من الحكومة العثمانية.

بيد ان هذه التشكيلات السياسية، وان كانت تمثل الزخم الايدلوجي العربي في مطلع القرن الحالي، فانها لم تكن مدعومة بتيارات جماهيرية، ولا بقوة عسكرية من اي نوع. كانت التشكيلات مؤلفة من مثقفين، إما هم خارج بيئتهم التي يفترض ان يعملوا فيها، أو هم موجودون في بيئتهم ولكن غير قادرين على التأثير فيها بشكل كافٍ بسبب بنيتها القبلية ـ الطائفية الصعبة على التسيُّس.

اما القطب الثاني في حركة النهضة العربية في الشرق، فقد كان حسين بن علي، أمير مكة، الذي عين من قبل الحكومة العثمانية اميراً على مكة سنة ١٩٠٨، فأنطلق من موقعه هذا الى تقوية نفسه كي يبقى ضامناً لمركزه، وربما موسعاً له. بقي، بسبب ذلك، رغم حذره، على صلة متوترة بالعاصمة العثمانية. وحين نشبت الحرب العالمية الاولى تغير مجرى الامور تدريجياً بالنسبة له. لقد صورت له طموحاته انه يستطيع الاعتماد على البريطانيين من اجل التمرد على الاتراك، وبناء دولة ما، كبيرة أو صغيرة. لذلك، كان على اتصال بمركز المخابرات البريطانية في القاهرة. وقد بدأ اتصاله الرسمي المعلن بالمخابرات البريطانية في بداية الحرب العالمية الاولى، وذلك برسالة وجهت بتوقيع عبدالله بن حسين الى رونالد ستورز، المستشار «الشرقي» لدى الاقامة العامة البريطانية في القاهرة. وتلقى حسين جواباً من اللورد هربرت كتشنر الذي كان وزيراً للحربية البريطانية حينذاك، وكان، قبل ذلك، «مقيماً عاماً» في القاهرة. وتضّمن الجواب وعداً لحسين بضمان بقائه اميراً على مكة وحمايته من كل اعتداء خارجي ومساعدة العرب مقابل مساعدة بريطانيا ضد تركيا.

ربما رجع الفضل الى بريطانيا في دفع حسين، من جهة، والتشكيلات العربية السياسية المناوئة للسلطة العثمانية، من جهة اخرى، الى التعاون مع بعضها. على كل حال، أجرى حسين، بواسطة ولده فيصل، اتصالات مزدوجة مع السلطة العثمانية، ومع جمعية «العربية الفتاة» ومع حزب «العهد» الذي كان ينتمي اليه. وأرادت الصدف، في تلك الفترة، ان يحضر «ضيف» جمال باشا، الكبير، «حفلة» شنق الوطنيين السوريين.

تمخضت اتصالات فيصل بالتشكيلات السياسية السورية عن الاتفاق على التعاون مع بريطانيا وعلى بروتوكول دمشق الذي وضع في ايار (مايو) ١٩١٥. وينص على وجوب ان يتعهد البريطانيون بالاعتراف باستقلال دولة عربية ممتدة من خط العرض ٣٧ في الشمال، وتضم سورية وفلسطين والعراق والجزيرة العربية، ما عدا عدن، بالاضافة الى الغاء الامتيازات